مقال

مدخل حول قضية تشكّل الوعي

نادر باوزير

مركز الشيخ
علي الغريّاني للكتاب

تُشير كلمة الوعي في معهودِ الاستخدام العربي إلى معانٍ تدُلُّ على ضَمِّ الشيء؛ كالحِفْظِ والفَهْمِ والقَبُول والإدراك التَّام ونحو ذلك، بينما يُشير معناها في المعهود الفِكْري والثَّقافي إلى معانٍ متعدِّدة.

◆ مصطلح الوعي بين اللغة وتطور الدلالة:

حيث إنَّ كلمة الوعي قد أخذتْ حظَّها من التطَوُّر الدِّلالي، فأصبح لهذه الكلمة مدلولات مختلفة بحسب الحقل التي هي فيه، والمعنى الذي أُريده هنا، هو ما يُشير إليه أ.د. عبد الكريم بكّار في كتابه: "تجديد الوعي" بقوله: "إنَّ الوعي محصِّلة عمليات ذهنية وشعورية مُعَقَّدة، فالتفكير وحده لا ينفرد بتشكيل الوعي، فهناك الحَدْسُ، والخيال، والأحاسيس، والمشاعر، والإرادة، والضَّمير، وهناك المبادئ والقيم ومرتكزات الفطرة، وحوادث الحياة، والنُّظُم الاجتماعية، والظُّروف التي تكتنف حياة المرء. وهذا الخليط الهائل من مكوِّنات الوعي يعمل على نحو مُعَقَّدٍ جدًا، ويُسْهمُ كل مكوِّن بنسبة تختلف من شخصٍ إلى شخصٍ آخر، مما يجعل لكل شخصٍ نوعًا من الوعي يختلف عن وعي الآخرين".

هذا النص يوضِح لنا أن الوعي حال يشترك في تكوينه عدَّة مُكَوِّنات متضافرة، كما أنَّه هو المرتكز الأساسي الذي يحكم تصرُّفات الإنسان التفكيرية، والسلوكيّة، والتعامليّة، وإذا ما أردنا أن نُقَرِّبَ مدلول الوعي لأذهاننا، علينا أن نبحث وراء ما نُطْلِقُ عليه وعيًا، فإنَّنا في كثيرٍ من الأحيان قد نَصِفُ بعض الأشخاص بأنَّهم "واعون"، ونقصد بذلك: سلامة إدراكهم، وسِداد فهمهم، وجودة نباهتهم، التي جعلتهم في حالة من اليقظة والتَّبَصُّر تُمَكِّنهم من إدراك الوقائع والحقائق والمستجدات والمؤَثِّرات، والتعامل معها بشكل أكثر كفاءة.

إننا في الحقيقة لا نتعامل مع الوعي من حيث هو هو، أي: لا نُطْلِق وَصْفَ الوعي ونُريد به مدح مُكَوِّنَاته، ومدى جودة تأثير كُل مُكوِّن في إنضاج وعي مَن وصفناه بالوعي، وإنَّما نتعامل معه من حيث إفرازاته وما يدُلُّ عليه من مؤشراتٍ ملحوظة.

◆ من الطفولة إلى الرشد.. رحلة الوعي

إنَّ رحلة الوعي تبدأ منذ مراحل مُبكِّرة من حياتنا، بل تبدأ قبل أن نُوْجَد في هذه الحياة، وذلك إذا ما اعتبرنا مدى صلابة تأثير البيئة في تشكُّل وعينا وإنضاجه، فإنَّه من الملاحظ تمامًا أنَّ وعي الوالدين -ومَن يقوم مقامهما من المُرَبِّين-، والبيئة التي يُوجدَانها لأبنائهما، وما يُحيط بتلك البيئة المُهيَّأة، والنُّظُم الاجتماعية الَتي تحكم عادةً، والعقل المجتمعي السائد؛ هي من أوائل المكوِّنات التي تُحَدِّد الخطوط الأولى والعريضة لسَيْر وعينا، شيئًا فشيئًا يدخل وعينا إلى مراحل متقَدِّمةٍ من التعقيد والتركيب، حيث تبدأ هذه النَّفس بما أودع الله تعالى فيها من خُلُق وطِبَاع بالتفاعل مع الواقع الخارجي، فتنشَأ لدينا الإرادة والشَّهوة (الرَّغبَة)، والعِبْرَة والخبرة، وطُرُق العيش والكَسْب، وأمور متعدِّدة تعود على تكوين وعينا بالأثر الكبير الملموس، وقد يكون تأثير كل مُكَوِّن من هذه المكوِّنات مختَلِفًا بين شخص وآخر، وفَرْقُ نِسَبِ التأثير له ارتباطٌ بأسباب أخرى، إلا أنَّ المقصود: أنَّ الفَرْقَ في تأثير هذه المكوِّنات على النَّاس -بل وجود بعضها من عدمها- هو ما يُوْجِدُ اختلافهم الظاهر في درجات الوعي والإدراك، ومدى امتياز بعضهم عن بعض في جودة التفكير، وسلامة الفَهم، وتماسُكِ المنطِقِ، ومعيارية المحاكمة العقلية، وحُسْنِ رَدَّاتِ الفعل..

وهذا يعني أنَّه من الأمور اللَّازمِ إدراكها: ضرورة توفير ما يستطيع الإنسان توفيره من أسباب الوعي والإدراك، بَدْءًا بنفسه، ثُمَّ لأهله، ثُمَّ لمُجتمعه، ليُحَقِّق له وعيه هذا: انكشاف الحقيقة والصواب، ويُبْعِده عن الزَّيْفِ والعِماية والخِداع، فيغدو تفكيره رشيدًا، وسُلوكه مُتَّزِنًا، وفهمه لما حوله سديدًا، وردود أفعاله حكيمةً منضبطة.

◆ وعينا في زمن العولمة:

ونحن إذا تساءَلنا اليوم، ما هي الأمور التي تُشَكِّل وعينا وتؤثِّرُ فيه؟ وهذا في الحقيقة سؤال في غاية الأهمية، لا سيَّما ونحن في عصر العولمة، العصر الذي تماهت فيه هوية أُمَّة الإسلام بهويات الأُمم الأخرى، وانتقلت إلينا كثيرٌ من الأسباب التي أثَّرت في تشكيل وعينا كما ينبغي، فالمسلم

-بـلا شـك- يمتلك أكبـر مُقوِّمَـات الوعي، وهـو: الوعـي الإيماني الذي يُشـكِّل مرتكـز الوعـي وأساسـه، والـذي يُبْنَـى عليـه غيـره، وليـس حديثنـا هنـا عـن مُقوِّمَـات الوعي المسـلم، فهـذه القضية حقُّهـا أن تُفْرَد بالكتابة، لكن نُشـير إشـارة تُصَحِّـحُ قولنـا: بأنَّ المسـلم يمتلك أكبـر مُقوِّمَات الوعـي، لننتقل إلى المقصـود من هـذا المقال.

فنقـول: إنَّنـا إذا تأمَّلنـا فيما يبحَثُ عنه المفَكِّرون والفلاسـفة، فإنَّنا سـنجد أنَّهـم يبحثـون عن الحقائق وراء مجموعة من الأسـئلة المركزيـة، والتي يُعتبر إدراك جوابهـا مُلِحًّـا وضروريًّـا للغايـة، فمـن أهـم تلـك الأسـئلة: الأسـئلة الوجوديـة، وهـي التي تتعلَّق بالسـؤال حول حقيقة الوجـود (المبدأ والمصير)، وحقيقـة الهويـة (مـن أنـا)؟، وحقيقـة الغايـة (لماذا نحـن هنـا)؟، وغيرها من الأسـئلة الضروريـة التـي يمتلـكُ المسـلم إجابتها الإجابـة الوافية الشـافية فيمـا أنزله اللّه فـي وحيه.

إن حقيقـة الوجـود (الكون) قائمة على أنَّه مخلوق مكانًـا وزمانًا، وأنَّ له خالقًا خَلَقَـه، ولـم يَخْلُقْـه اللّه تعالى لا عبثًا ولا لهوًا ولا لعبًا، بـل خَلَقَه لغاية وحكمة بالغـة، وأنَّنا إليه راجعـون، وأنَّ وراء هذه الحياة حياة أخرى.

وحقيقـة الهوية: أنَّنا بشـرٌ مخلوقون، عابدون لله تعالـى ومكَلَّفون من قِبله، خلقَنَـا فأحسـن خَلْقَنا، وقدَّر مقاديرنـا، وكتب آجالنا وأرزاقنـا، ونحن في الختام إليه صائرون.

◆ وحقيقة الغاية: أنَّنا خُلِقنا للعبادة والابتلاء (الاختبار).

فهـذه الحقائـق الضروريـة مُبَيَّنـة للمسـلم فـي وحـي ربِّه غايـة البيـان، إلى جانـب حقائـق أخـرى لا تقِـلُّ عنها أهميـة، وهـذا يُؤكِّـد أنَّ لدى المسـلم وعيٌ إيمانـيٌّ يُوصلـه إلى الحقائق فـي صُلْبِ القضايا الملحَّة والتـي يَضِلُّ فيها كثيرٌ من النَّاس، سـواءً كانوا من المتَّبعينَ للشـرائع السـابقة كاليهود والنَّصارى فـإنَّ مـا وقـع فـي دينهـم مـن التبديـل والتحريـف أفقدهـم البلـوغ للحقائق الإيمانيـة بالقـدْر الذي عند المسـلمين، فقلَّ وعيهم الإيمانـي بتلك الحقائق، فاليهـود قـومٌ غَضِبَ اللّه عليهـم، والنَّصارى قومٌ ضلّوا بعـد إذ جاءهم العلم

والوحـي، أو كانـوا من المتنَكِّريـن للدِّين كالملاحـدة ونحوهم، فهـؤلاء جميعًا فاقـدون لهدايـة اللّه وإرشـاده، وكان الحـظُّ الأوفر في تمام الحقائـق إنّما هو للمسلمين .

مـن هنا فإننا نقول: إنَّ المسـلمَ يمتلكُ أكبر مُقوِّمَـات الوعي المتكامل؛ لأنَّ الوعـي الإيمانـي هو الأصل الذي يكشـف للإنسـان الحقائق الوجوديـة، فيَبْنِي عليها كل شـؤون وعيـه، ويُفَرِّعها على ذلك الأصل، الذي هـو في ذات الوقت: وعيٌ مسـتقل ومعيار حاكم، وحينها تنكشـف كثيرٌ من الأمور الحياتية الجزئية، ويصـل المسـلم فيهـا إلى تمـام الوعي والرَّشـاد، لينعـم بحيـاة الحقيقة في هذه الدُّنيا.

والمقصـود: أنَّ الأصـل الـذي ينبغـي أن يُشَـكِّل وعينـا لابُدَّ وأن يسـتند فيه المسـلم إلى الوحي، بحيث يكون الوعي الإيماني هو أحد مكوِّنات تشـكُّل وعي المسـلم الأساسـية، فإنَّه الكاشـف له عن تفاصيل شـأنه حقيقةً، وما يحتاج إليـه فـي هذه الحيـاة: اعتقادًا وإيمانًا، فِكْرًا ورشَـادًا، سـلوكًا وتعامـلًا، معيارًا وتحاكمًـا، وأنَّـه في الحـال الذي نبتعد فيه عـن الوحي أو (الوعـي الإيماني) في بنـاء وعينـا وتشـكُّله سـنبتعد بقَـدْر ذاك البُعـد -أو أكثـر- عن أن يكـون وعينا مُحَصِّـلًا للحقائق بصورتهـا الهادية إلى الحـق والصواب.